

أحاديث رمضان ٤٢٨ هـ - قوانين القرآن الكريم - الدرس (١٢ - ٢١) : الولاء والبراء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١٠-٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن حول الشهوات إلى جنات القربات.

الولاء والبراء:

١ - الولاء والبراء جزءٌ من الدين:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس سنن الله في كتابه، والقانون اليوم قانون الولاء والبراء، الولاء والبراء جزء كبير من الدين.

٢ - من مقتضيات الولاء والبراء الدفاع والنصرة:

لابد أن أوضح هذا المعنى:

هناك ابن له ولاء لأبيه، لما نقلت له قصة لا تليق بأبيه فكر لعلها افترى عليه، لأن له ولاء لأبيه، يفكر لعلها مبالغة، وليس كما هي، يفك أن يدافع عنه، يفك أن يسأل أباً، لأن له ولاء فيحاول أن يتتأكد، ويتحقق، ويدافع، ويسأل، لكن لو أن إنساناً يعادي إنساناً فأقلُّ خبرٍ سيئٍ يصدقه بلا دليل، لأن هذا الإنسان الثاني ليس له ولاء للأول.

حينما تولي الله ورسوله تنفي كل قصة لا تليق بكمال الله دون أن تشعر، وإذا سمعت افتراء وشبهة تحاول أن تبحث وتتأكد، لذلك الولاء أصل في الدين.

حينما تولي الله ورسوله وتولي المؤمنين فإنه يسعدك ما يسعدهم، ويؤلمك ما يؤلمهم، تدافع عنهم، تحاول أن ترى بعض المبررات لأعمالهم، تحاول أن تعذر عنهم، تحسن بهم الظن، أما العدو فيبحث عن المثالب، والأخطاء، ويكتب، ويشهر، ويروج.

لذلك قد ينطق المؤمن من الولاء إلى آلاف التصرفات، كمثل إنسان ذهب إلى بلاد الغرب، التي فيها إيجابيات، وفيها سلبيات، إذا كان ولاءه ضعيفاً جداً لأمته ولدينه فكل الميزات في بلاد الغرب يروج لها، ويتحدث عنها، وأمام المثالب والعيوب والسلبيات والأخطاء والجرائم والإباحية فيتعاطى عنها ولا يذكرها، لأن ولاءه لهم، بينما المؤمن تلقى سلبيات الغرب، تلقى إباحيتهم، تلقى عدوائهم

على بقية الشعوب، فيتالم أشد الألم، أما إذا رأى في بلده سلبيات فيتالم، ويحاول أن يصلحها، يحاول أن يقيمهها، يحاول أن يبحث عن الأسباب التي أدت إليها، والأصل في الحياة ولاءك وبراءتك.

٣ – الولاء للحق مهما كانت الظروف:

الإنسان الذي هو عدو للدين ينبغي ألا تكون ولية له، لأنه يرى الإباحية في بلاد الغرب، يرى التجاوزات، يرى الشذوذ، يرى ما يفعله هؤلاء الأقوياء بشعوب الأرض فلا يتالم أبداً، بل يشيد بصناعتهم، وبنظافتهم، ونظمهم، وأناقتهم، وينسى جرائمهم، إذاً هذا والاهم، فإن واليتم فانت منهم، ومن هو ي الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً.

بشكل أو بآخر ينبغي أن تولي المؤمنين، ولو كانوا ضعافاً وفقراء، وينبغي أن تتبرأ من المشركين، ولو كانوا أغنياء وأقوياء.

آيات الولاء والبراء في القرآن الكريم:

الآلية الأولى:

أيها الإخوة، الآية:
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْكُذُوا أَبْعَادُكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أُوْلَئِيَّاءِ إِنَّ اسْتَحْبُوا الْكُفَّارَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ
مِّنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

(سورة التوبة)

أنت مع الحق أينما كان، فلذلك ما هي العصبية؟ أنت تنحاز انحيازاً أعمى
أوضح هذه المسالة بالأمثلة:

لك ابن أخطاء، هناك إنسان ينحاز إلى ابنه على خطئه، أو ابن ينحاز إلى أبيه على خطئه، أما المؤمن فولاء للحق، فإذا أخطأ ابنه يعنقه أشد التعنيف، ولو كان ابنه، وإذا أصاب إنسان آخر قد يكون له نداء، وهو مع الحق، لذلك قضية الحق والباطل قضية دقيقة جداً.

مرة أبو حنيفة النعمان كان عند المنصور، وكان عند المنصور قاض على عداوة مع أبي حنيفة، فأراد هذا القاضي أن يوقع أبي حنيفة في حرج شديد، قال له: إذا أمرني الخليفة بقتل امرئ أقتلته أم أترى ث فلعله مظلوم؟ ماذا يقول له؟ إذا قال له: اقتلته، فقد أغضب الله، وإذا قال له: لا ترد عليه، فقد أغضب الخليفة، قال له: الخليفة على الحق أم على الباطل؟ رد له الكراة قال له: على الحق، قال له: كن مع الحق.

فإن الإنسان أحياناً يوالى المؤمنين، وإذا والى المؤمنين ارتقى عند رب العالمين، وهذا الذي يتخلّى عن أمته ليس موالياً لها.

النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان في الطائف، وبالغ أهل الطائف في إيزاده، ماذا قال؟ اللهم اهـ قومي فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحدهك.

الذي أريد أن أقوله لكم باختصار: إن الإنسان إذا كان مع الحق والى المؤمنين، ووالى المسلمين، يؤلمه ما يؤلمهم، ويسعده ما يسعدهم، يعتذر عنهم أحياناً، والقوى المعادية للدين تخطط لهم، تشتتهم، تفرقهم، تفرق جمعهم، تشوّه صورتهم، هو يتّالم أشد الألم، لا يصدق هذه الكلمات، يبحث عن تبرير، يبحث عن تفسير آخر.

الآلية الثانية:

أيتها الإخوة:

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقُومِهِمْ إِنَّا بُرَاءٌ مِّنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَعْضُاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)

(سورة المتحدة الآية: ٤)

إذاً: ينبغي أن يكون لك الولاء للمؤمنين، وغير المؤمن يمكن أن تقيم معه علاقة عمل ما فيها شيء، والحياة هكذا، أنت في مدرسة، أنت في معمل، في مستشفى، في جامعة، في وظيفة، قد يكون من حولك ليسوا كما تتنوى، علاقات العمل ما فيها شيء، لكن الولاء والبراء يظهر في العلاقات الحميمة، ففي شركة اندماجية يجب أن يكون الشريك على شاكلتك، له ولاء للمؤمنين، رحلة طويلة مشتركة، وفي العلاقات الحميمة ينبغي إلا تكون بين المؤمن وبين غير المؤمن.
عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا))

[أخرجه أحمد، وأبو داود والترمذى]

لابد من التعامل بالعاطفة العميقه لا بالعاطفة السطحية:

اسأل نفسك هذا السؤال: أيفائك وضع المسلمين؟ أحياناً لا يتحمل الإنسان ما يرى في الأخبار فيتألم، فالمهنة هذا علامة ولائه وبرائه، وأحياناً يذهب إلى بلاد بعيدة فيرى الأنقة والجمال والنظام، والفاخمة والرفاف والترف، لكن يرى بروية أعمى أن هذا البناء الفخم، وأن هذا الغنى الفاحش بسبب ثروات الشعوب الضعيفة، وهناك ظلم في العالم ظلم شديد جداً
لو أن إنساناً دخل بيت شخص هو تاجر مخدرات فرضاً - لا سمح الله - سيد فخامة كبيرة، لكن ولاء للحق يجعله يحتقر هذا البيت الذي بني على إفساد أخلاق الشباب.

أحياناً يدخل الرجلُ بيته متواضعاً جداً، صاحبه موظف مستقيم، له استقامته وعمله الطيب، فيحبه ويقدره على ضعف بيته، وعلى بساطة بيته، يرى استقامته، ويرى للناس، لذلك قالوا: عندنا عاطفة سطحية، وعندنا عاطفة عميقه، المؤمن يتعامل بالعاطفة العميقه.

قد تجد بلاد غنية جداً، بنىٰ على نهب ثروات الشعوب، لذلك هذه البيوت على أناقتها ونظمها وتفوقها وجمالها المؤمن الصادق لا يتأثر بها، هي على الشبكية فقط.

إنّ ملهي من بعض الملاهي في بعض البلاد العربية كلفت الصالة الواحدة ٣٠ مليون دولار، رخام، وتزيينات، وثريات، وقد تدخل إلى جامعة متواضعة جداً فتجده بناء متداعياً منذ خمسين سنة، لكن هذه الجامعة تخرج أطباء، وعلماء، ومدرسين، وختصاصين، أما دار اللهو ودار القمار فتخرج مجرمين منتحرين، فالبطولة إلا تكون العاطفة سطحية، أن تكون العاطفة عميقه.

أيها الإخوة، مرة قال لي شخص: أنا عملي قذر، لكن مكتبه فخم جداً، فخامته تفوق حد الخيال، ولحكمة بالغة في اليوم التالي اضطررت أن أصلح مركتي في مكان بأطراف المدينة، والمطر شديد، والوحول، وصاحب المحل انبطح تحت المركبة، وأصلاح المركبة، وأخذ أجراً متواضعاً، وأتقن عمله، فقلت في نفسي: والله الرجل الثاني عمله نظيف مع أنه على الشبكية النظافة والأناقة بالمكتب الأول، ومحل لإصلاح السيارات، والمطر شديد والوحول، ويرتدى ثياباً متواضعة جداً، كان لونها أزرق سابقاً، ولم يرَ لونها الآن من والوحول والزيت والشحم، قلت: والله هذا عمله نظيف.

فأنت بطولتك أن تخترق المظاهر، بيت مغتصب، ولو كان فخماً، صاحبه آثم، وإنسان بيته متواضع جداً، لأنّه ما أكل مالا حراماً أبداً، هذا معه وسام شرف.

كلما تعمقت في الدين كان ولاءك لأهل الحق وللمؤمنين، ولو كانوا فقراء، وكلما ضعف إيمان المؤمن والى أهل الدنيا وعظمهم، ويعتمد على أخطائهم، ويثنى عليهم ثناءً غير صحيح، فالبطولة ولاءك وبراءتك، لذلك: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله قال:

((من عادى لي ولئلا فقد آذنته بالحرب...))

[البخاري]

بالمناسبة آذنته بالحرب في القرآن وردت في آية الربا:

((فإن لم تفعلا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله))

(سورة البقرة الآية: ٢٧٩)

في الحديث وردت:

((من عادى لي ولئلا فقد آذنته بالحرب...))

الآية الثالثة:

إخواننا الكرام، آية أخرى دقيقة جداً:
(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَتَصَرَّفُوا أُولَئِكَ
بَعْضُهُمُ أُولَيَاءِ بَعْضٍ)

الآن:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَاتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا)
(سورة الأنفال الآية: ٧٢)

الولاء للمؤمنين يقتضي خدمتهم والتحرك نحوهم:

ما لم تتحرك، ما لم تتخذ موقف، ما لم تهاجر، ما لم تفعل شيئاً، ما لم تلتزم فايمانك لا قيمة له:
(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَاتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا)
أوضح مثلث: إنسان ذهب إلى بلاد بعيدة، وأخذ الجنسية، واستقر، ونسي أمنته، هو لحم كتفه من
خير بلده، علمه لأعداء المسلمين، الذي عنده ولاء لأمنته ولدينه يريد أن يرد لأمنته جميلها، فيعود
إلى بلده، ويعالج المرضى المؤمنين.
فذلك:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَاتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا)
(وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ الظَّرُرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنُكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَيَّانٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ)

الآن دقوسا:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمُ أُولَيَاءِ بَعْضٍ)

(سورة الأنفال الآية: ٧٣)

يتناصرون، يتتعاونون، يسهرون الليل، يخططون، يتتعاونون، وتتجدد تحالفات كلها ظالمة، تحالفات
من أجل اغتصاب الشعوب، من أجل قهر الشعوب كـ
(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمُ أُولَيَاءِ بَعْضٍ)

لكن أدق شيء في الآية:

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

(سورة الأنفال الآية: ٧٣)

هذه الهاء ضمير غائب على من تعود؟

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

يعني إن لم تؤمنوا، وإن لم تهاجروا، وإن لم تجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، وإن لم تؤوا، وتنصروا، إن لم يكن لكم ولاة للمؤمنين.

(إِلَّا تَفْعِلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

(سورة الأنفال)

هذه الهاء تعود على الآية السابقة بأكمالها:

(إِلَّا تَفْعِلُوهُ)

إذا ما آمنت وهاجرت، وجاهدت بمالك، ونفسك، وأوبيت، ونصرت:

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

الآن: ما سبب ضعف المسلمين؟ تفرقهم، عدوهم ينال منهم واحداً واحداً، ينال من جهة، والكل يتفرج، ينال الثاني والكل يتفرج، إلى أن يأتي عليهم جميعاً، ولا أحد يتحرك لكن المؤمنين كما قال عليه الصلاة والسلام:

((سلمهم واحدة، وحربهم واحدة))

[ورد في الأثر]

(وَإِنْ طَائِقَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ افْتَلَوَا فَاصْلِحُوهَا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَعْثَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)

(سورة الحجرات الآية: ٩)

الولاء للمؤمنين يقتضي الانتماء للمجموع:

هناك انتماء إلى المجموع، وأكبر مرض يعاني منه المسلمين الانتماء الفردي، حيث كل إنسان يقول: أنا ما عندي مشكلة، لكن في الحقيقة هناك مشكلة كبيرة عند بعض الناس دون أن نفكر في حلها.

أوضح مثل:

احترق بيته في شارع، هذه البيوت كلها إن لم تخرج لإطفاء الحرائق فالحرائق سيصل إليها بيته.

نحن بحاجة إلى الولاء، أن تقول: أنا لست بخير إذا كان المسلمين ليسوا بخير، أن تشعر أن ما يصيب المسلمين يصيبك.

أحياناً لا يكون عند الإنسان مشكلة، بلده والحمد لله آمن، لكن هل نحن مرتاحون لما يجري في فلسطين؟ في العراق؟ في الصومال مثلاً؟ في السودان؟ هناك أخطار تهدد هذه البلاد، فعلامة ولاءك وبرائك أقل شيء أن تتالم، وأقل شيء أن تدعوا لهم، وأقل شيء أن تساعدهم بمالك إن أمكنك، هذا هو الولاء والبراء.

أتمنى أن تكون هذه الأفكار واضحة، لأنك توالي الله عز وجل، تحمل هم المؤمنين، يفرحك إذا كانوا في سعادة، يؤلمك إذا كانوا في شقاء، تعجب بوحدهم، تتألم لفرقهم، تخفف من آلامهم، تحمل بعض همومهم، هذا هو الولاء والبراء، الولاء والبراء جزء من الدين.
أيها الإخوة، يقول الله عز وجل:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أُولَيَاءُ بَعْضٍ)

(سورة التوبة الآية: ٧١)

وا والله عالمة إيمانك أينما ذهبت، إلى أين مكان في العالم ترى المؤمن فتحبه، وكأنه أقرب الناس إليك.

مرة سمعت محاضرة من عالم أصله من السندي، مقيم بجنوب إفريقيا، أحمد ديدات، لا يتكلم العربية، أقسم لكم بالله شعرت أنه أقرب إلي من أقرب الناس إلي، هذا الولاء والبراء، أينما سافرت المؤمن تحبه، تجده سمعته حسناً، متواضعاً، غيوراً على هذا الدين، يحب أن يقدم شيئاً، يخفف من آلام المسلمين، هذا هو الولاء والبراء، وما لم تتمتع هذا بالولاء والبراء ففي الإيمان خلل كبير.

لذلك:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أُولَيَاءُ بَعْضٍ)

(يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطْبِعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
أُولَئِكَ سَيِّرْ حَمْمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

(سورة التوبة)

أنا أريد أن أخص لكم معنى الولاء: المجموع لواحد، والواحد للمجموع.

زبدة القول وملخصه:

مرة طرح شعار، والقصة قديمة، فأنا أعجبني هذا الشعار، الشعار هو: لسنا وحدهنا في المعركة، أنا عذّلته، وقلت: لست وحدك أيها المؤمن في الحياة، هناك ألف آخر يعاونك، ألف آخر ينجدك، ألف آخر يقدم لك شيء، ألف آخر ينصحك، ألف آخر يأخذ بيدهك، لست وحدك في الحياة، وما لم نكن كذلك فالله عز وجل لا ينظر إلينا.

مرة صحابي تخلف عن رسول الله، النبي سأله عنده، لكن أحدهم طعن فيه، قال له: شغله بستانه، فقام أحد الصحابة قال: لا والله يا رسول الله، والله قد تخلف عنك أناس ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو علموا أنك تلقى عدواً ما تخلفوا عنك، فابتسم النبي فرحاً بهذا الموقف.
دافع عن أخيك، وهناك حالات كثيرة الآن من هذا القبيل، فإذا ذكر آخر لك بسوء لا تبق ساكتاً، وأنت تعرفه أن الأمر خلاف ذلك، دافع عنه.

الآن هناك اتجاهات منها الانتماء الفردي، ليس الرجل مستعداً أن يقول كلمة، ما ولا أن يدافع عن رأيه إطلاقاً، حتى لا يكون عليه مأخذ.

إذا أثهم المؤمن بشيء هو بريء، وأنت تعرف بريء، فدافع عنه، هذا هو الولاء والبراء، وعلامة إيمانك ولاءك وبرائك، وعلامة ضعف الإيمان ضعف الولاء والبراء.

والحمد لله رب العالمين